مساهمة عثمان أمين فى الفلسفة العربية الإسلامية من خلال ملتقيات الفكر الإسلامى بالجزائر

د . إسماعيل زروخى
قسم الفلسفة ، جامعة قسنطينة ، الجزائر

مقدمـــــة :

لعبت مصر دورا فعالا فى دفع النهضة العربية الحديثة وفى توفير البـــذرة التى ساهمت فى تلك النهضة بالنسبة لكل العرب ، ولعل ذلك ماتؤكده الصـــيرورة التاريخية للفكر العربى الحديث والمعاصر ، إذ كانت مصر محط رحال كثير مـــن المفكرين العرب ومن جميع الأقطار العربية ، وأدى ذلك إلى تلاقح فكرى ســـاهم فى ظهور نهضة عربية – على الأقل من رؤية خاصة – وبعد استقلال كثير مـــن الدول العربية فى النصف الأخير من القرن الحالى حملت بدورهـــا مهمـــة الدفـــع بالنهضة العربية إلى أفق بعيد ، ولعل من بين تلك الدول الجزائر التى كـــان لـــها الأثر الكبير فى هذه النهضة العربية المعاصرة التى وفرت التربة الخصبـــة لكـــل المفكرين العرب فكانت أرضها وإمكاناتها مسخرة لهم جميعا ، مما دفع بكثير مـــن المفكرين إلى البروز على المسرح العربى والعالمى فى مجال الفكر والبحث فيه .

وظهر ذلك جليا من خلال ملتقيات الفكر الإسلامى بـــالجزائر التـــى كـــانت تنظمها وزارة الشئون الدينية بانتظام ، فكان من بين المفكرين الذين برزوا فى تلـــك الملتقيات " عثمان أمين " [1] الذى استطاع من خلال حضوره الدءوب والمتواصـــل

---

(١) كانت الموضوعات التى شارك بها فى ملتقيات الفكر الإسلامى بالجزائر من ســـنة ١٩٧٠الى سنة ١٩٧٥ مرتبة على الشكل التالى: فلســـفة الغـــة العربيـــة(١٩٧٠) ، تصحيح المفاهيم عن الغة العربية (١٩٧١) ، نقد المجتمع الإسلامى المعـــاصر . ==

أن يوطد روابط الصلة بين أبناء الأمة الواحدة الذين لايختلفون فى تاريخهم ولا فى نمط تفكيرهم المشترك ، وسأحاول فى هذه الدراسة إبراز أهم المحاور التى كانت تدور عليها فلسفته فى ملتقيات الفكر الإسلامى التى كانت تنعقد بالجزائر ، مبرزا فى ذلك العناصر الأساسية التى كانت تمثل هاجسه الفكرى ، والتى تمثل فى الوقت ذاته هاجس الإنسان العربى فى كل بقعة من العالم العربى ، كما أننى لا أريد فى هذه الدراسة تقييما لأفكاره ولا الحكم عليها ، لأن ذلك يفرض ضرورة الرجوع إلى كل ماكتبه الرجل ولا أريد فى الوقت نفسه أن أخرجه من طى النسيان ، لأن أشقاءنا المصريين وعلى كل المستويات كما عرفناهم ، وكما سجل التاريخ عنهم أنهم لايتركون علماءهم ومفكريهم فى طى النسيان ، فهم يقومون بتدوين وتسجيل وتشجيع وتذكر كل من ساهم بقدر ما فى المعرفة الإنسانية ، لذلك فهم الأقدر والأقرب إلى الحكم على عثمان أمين وعلى أفكاره ، وإنما ما أود تقديمه هنا هو فقط المحاضرات التى شارك بها فى ملتقيات الفكر الإسلامى بالجزائر مابين ١٩٧٠ – ١٩٧٥م ، محاولا فى ذلك تسليط الضوء على ماحتوته تلك المحاضرات من مواقف حول المسائل التى طُرحت فيها ، وقد تكون أفكاره حول تلك المسائل قد عدلت أو طورت ، وهذا مايدفعنى بالقول بأن تحليلاتى وأحكامى عليها نسبية ، وستتبع هذه الدراسة بملحق للمحاضرات التى شارك بها فى ملتقيات الفكر الإسلامى بالجزائر ، وقد يستفاد منها فى جمع تراث الرجل وأفكاره ، ولعلى بذلك أساهم فى جمع قدر ضئيل وضئيل جدا من الفلسفة المصرية فى مائة عام ، لأن

== (١٩٧٢) ، والعيب فينا (١٩٧٣) ، أثر الفلسفة الإسلامية فى الفكر الغربى (١٩٧٤)، الثقافة والحضارة (١٩٧٥) ، وكما كانت له مقالات أخرى فى مجلتى الثقافة والأصالة .

ففى الأصالة ظهر له مقال بعنوان : جمال الدين والتجديد الإسلامى ، وهو فى نفس الوقت محاضرة ألقاها فى الملتقى الرابع الأصالة ، مجلة ثقافية شهرية تصدر عن وزارة الشئون الدينية ، الجزائر ، العدد ٥٢ ، ديسمبر ١٩٧٧ .

أما فى الثقافة فظهر له مقال موسوم بـ : موقف جمال الدين من الحضارة الغربية ، هذه الدراسة كما أشارت إليها المجلة قدمها لها قبل وفاته بأيام فقط ، الثقافة ، مجلة تصدرها وزارة الثقافة بالجزائر ، العدد ٧٦ ، يوليو – أغسطس ١٩٨٣ .

لها من التراكمات المعرفية خلال المائة عام هذه مما لاتستطيع المجلدات حمله .

أما مايتعلق بالمسائل التى تعرض لها عثمان أمين فى ملتقيات الفكر الإسلامى بالجزائر فهى فى عمومها لاتخرج عما طرحه فى مؤلفاته السابقة تاريخيا عن حضوره فى تلك الملتقيات ، وخصوصا مؤلفه "الجوانية " الذى نشر سنة ١٩٦٥م و " رواد المثالية فى الفلسفة الغربية " الذى ظهرت طبعته الثانية سنة ١٩٧٥م ، وكذلك مؤلفه " فى الفكر واللغة " الذى طبع سنة ١٩٦٧م ، " محمد عبده " الذى نشره سنة ١٩٤٤م ، وغيرهم من المؤلفات .

أولا : الفلسفة العربية المعاصرة ومصادرها :

كان لظهور الفلسفات الغربية الحديثة والمعاصرة امتدادات وتأثيرات على غيرها من الفلسفات وخصوصا العربية ، وكانت لهذه التأثيرات عوامل عديدة مباشرة وغير مباشرة ، فالمباشرة هى التى تولدت من الإحتكاك الفكرى المباشر من خلال تنقل كثير من المفكرين العرب إلى الغرب لظروف عديدة لايتسع المقام هنا لذكرها ، أما غير المباشرة فهى التى تولدت من خلال المظاهر الحضارية المختلفة التى تميزت بها أوروبا فى العصر الحديث والمعاصر ، وعموما يمكن القول كما قال كمال عبداللطيف أن حضور الفكر الغربى فى الفكر العربى المعاصر يعود من جهة إلى الإستعمار وتبعاته الفكرية ، ومن جهة أخرى إلى الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية المتردية التى كان عليها العالم العربى ، ومن ذلك فإن كل الإتجاهات الفلسفية العربية التى ظهرت فى العالم العربى هى وليدة الإتجاهات التى ظهرت فى العالم الغربى [١] .

ونحن فى هذه الدراسة لانود البحث فى العوامل والأسباب المختلفة لأن ذلك يقتضى أبحاثا عديدة ومتنوعة وقد لاتعطى للمسألة حقها من البحث والتدقيق ، لأن المسألة شائكة ومتنوعة ، وإنما الإشارة التى أود إيضاحها هنا هى مسألة ظهور الفلسفات الأوروبية الحديثة التى انبهر بها الأوروبيون أنفسهم وتبعهم فى ذلك

---

(١) كمال عبداللطيف ، طبيعة الحضور الفلسفى الغربى فى الفكر العربى المعاصر ، فى الفلسفة فى الوطن العربى ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٥ ، ص ٢٠٤ .

العرب المسلمون ، وأذكر بالخصوص الفلسفة الإجتماعية والوضعية ، والعقلانية ، والوجودية ، والمادية التى ظهرت تأثيراتها بشكل واضح منذ الدعوة الصريحة التى حمل لواءها " شبلى شميل " ومن كان فى صفه منذ أواخر القرن الماضى ، فأصبحت هى وغيرها من الفلسفات النموذج المؤثر فى الفلسفة العربية ، وحاولت بالتالى التجرد من خصوصيتها المتميزة سواء على مستوى التفكير ، أو على مستوى مظاهر الحياة المختلفة الأخرى ، فأضحت بذلك الصفة الروحية والأخلاقية المميزة للإنسان العربى بعيدة عن تفكيره ، بينما هى واقع حياته ، فنتج عن ذلك صراع ثنائى بين الفكر وواقعه ، مما دفع ببعض المفكرين العرب المسلمين إلى محاولة الرجوع إلى أصالتهم فى جميع مظاهرها السلوكية والفكرية ، فحاولوا تأسيس أنماط فكرية وفلسفية خاصة بهم .

وكان من أبرز هؤلاء عثمان أمين الذى سعى جاهدا إلى تأسيس فلسفة عربية إسلامية متميزة ، وإن كانت لاتخلو من تأثير الفلسفات الإنسانية الأخرى ، فرغم محاولاته تجاوز حدود الآخر ولاسيما بعض المذاهب فى الفلسفة الأوروبية الحديثة والمعاصرة ، إلا أنه وقع تحت تأثير الفلسفة اليونانية التى كانت مظاهرها واضحة فى تاريخ الفكر العربى الإسلامى وعلى تفكيره ، ولكن ذلك لاينفى تأثره بالواقع العربى الإسلامى المتميز بخصوصيته الذى كان واضحا على نمط فكره ، لأننا نعتقد أن أية محاولة فكرية ليست تجريدا مطلقا ، وإنما هو تجريد ينبع من واقع ، ولذلك كان لواقع " عثمان أمين " تأثيره الواضح حتى قبل مرحلة التفكير المتميز ، حيث قال فى كتابه " الجوانية " الكتاب الذى رسم فيه الخطوط العامة لفلسفته ، أن هذه الفلسفة : " إذا لم يكن فى استطاعتى الآن أن أحدد على وجه العموم بوادرها فى حياتى العقلية فقد أحسست بنوازعها فى صباى ، وقوة انطباعها فى شبابى ، واكتمال وعيها فى كهولتى " [1] ، فهو بهذا المعنى يريد أن يؤكد على أن واقعه هو اصل تفكيره ، وما الفلسفة التى يدعو إليها إلا الفلسفة التى بدأت تتكون قبل مرحلة التمييز والتفكير ، وأعتقد أن هذا التحديد وهذا المعنى فيه كثير من المبالغة وتجاوز للواقع ذاته ، لأننا نجد أن فلسفته ماهى إلا مجرد مشروع لا يفتأ فى تأسيس ذاته انطلاقا من صيرورة تاريخه الذاتى، المرتبط بالصيرورة

---

(١) عثمان أمين ، الجوانية ، دار القلم ، القاهرة ، مصر ، ١٩٦٥ ، ص ١١ .

التاريخية للآخر .

وكانت الخصوصيات التاريخية لتفكير الآخر واضحة فى تفكير عثمان أمين ، حيث كان قريبا من الفلسفة الكانطية فى منهجها وفى مبادئ تفكيرها وخصوصا موقفها من المعرفة العملية والنظرية ، وهذا ماكان يتبناه سبيلا للفلسفة وللمعرفة فقد كان من الرافضين للفكر التجريدى المحض ، وكذا المادى المحض ، حيث يقول : " قد ضقت ذرعا بالمذاهب التجريدية الجافة ، ونفرت من الفلسفات الإطلاقية المتعالية ، وكان يخيل إلىّ حينذاك أن الفلاسفة ... قد ضيقوا تجربتنا من ناحية العاطفة والإرادة بينما وسعوها بغير حساب من ناحية الفكر ، فأخذت أفتش عن فلسفة جديدة تستطيع أن ترضى قلبى كما تقنع عقلى " (١) ، ولن تكن تلك الفلسفة إلا العملية العلمية ، هذه الفلسفة التى تولدت عنده من تأثير أساتذته من المفكرين العرب المسلمين أمثال " مصطفى عبدالرازق " و "أحمد أمين " ، ومن أساتذته الغربيين أمثال " آبل رى " و " أندرى لالاند" وكذلك تأثيرات كثيرة من الفلاسفة اليونانيين والغربيين أمثال" أفلاطون " و" ديكارت " (٢) و " شيلر " (٣) وغيرهم من الفلاسفة .

ثانيا : موقفه من الفلسفة :

أعطى عثمان أمين أهمية بالغة للفلسفة ، لما لها من دور فعال فى تغيير حياة الإنسان وفى تحقيق كينونته الإنسانية ، ولكن أية فلسفة ؟ إنها الفلسفة العلمية والعملية التى تتعلق بحياة الإنسان ومصيره ، وليست تلك الفلسفة التى لاترتبط

---

(١) عثمان أمين ، شيلر ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ١٩٨٥ ، ص ٨ ، ٩ .

(٢) لقد كان عثمان أمين من المفكرين العرب الأوائل الذين ترجموا أعمال ديكارت إلى اللغة العربية ، ومما ترجمه له " التأملات فى الفلسفة الأولى" (١٩٥١) و " مبادئ الفلسفة " (١٩٦٠) .

Mimoune Rabia, Le Discours De La Methode Dans Le monde arabe. Problematique et Reception Du Discours de la Methode des Essais, Librairie Philosophique, Paris , 1988 , p. 184.

(٣) للمزيد من الإطلاع عن تأثر عثمان أمين بشيلر ، راجع مؤلفه السابق عن هذا الأخير.

بحياته وترتبط بالقضايا التجريدية ، أو التى ترتبط بالمادة وتجعلها ركيزتها وأساسها وتهمل الإنسان وإحساسه ومصيره ، فالفلسفة الحقة هى التى تغير الإنسان ذاته ، أو هى التى تفكر فى الذات المفكرة ذاتها ، أو كما يعبر عنها هيجل هى الحقيقة فى تجريدها وإطلاقها هى فكر الفكرة إذ تفكر فى نفسها ، وهذه الفلسفة هى التى تجعل من الذات الإنسانية كما يقول عثمان أمين ذات فعالة قوامها المحبة الإنسانية الخالصة [١] ، ومن ثمة تصبح الفلسفة ذات مقصد إنسانى تمارس فاعليتها بالإنسان ومن أجله ، ولقد مارست الفلسفة هذه الوظيفة حتى أصبح فضلها على الإنسانية المفكرة واضحا من خلال مثلها الأعلى المتمثل فى " تحقيق وعى الإنسان لذاته والمكانة فى العالم بحيث يرد جميع آرائه إلى أفكار واضحة متميزة ، ويمتنع أن يقرر أو يعمل مالم يكن معتمدا على أسباب صحيحة مقبولة لديه ولدى الناس جميعا " [٢] .

إن الفلسفة الحقة عندئذ هى الفلسفة الإنسانية التى تحقق وعى الإنسان الذى تتولد عنه الفلسفة ذاتها ، وتتولد عنه قيم الحياة الإنسانية المختلفة ، إن العلاقة جدلية مترابطة بوظيفة الوجود بين الوعى وفلسفته ، وهذه الفلسفة حسب عثمان أمين ليست وليدة العقل وحده ، بل هى أيضا المتضمنة فى الديانات السماوية التى كان الإنسان فيها يشكل نقطة الوجود ونقطة الحوار ، فالفلسفة هى التتبع المستمر لحياة الإنسان التى تبعثها على التغير والتطور ، لأنه كما يقول " هناك اشياء واقعة بالفعل وهى منظور إليها على أنها يجب أن تتغير لأنها لاتتفق مع مايرسمه المفكر والفيلسوف ، فالإنتقال من الواقعية القصد منه دائما الوصول إلى واقع أعلى وأسمى وأكثر معقولية من الواقع غير المعقول " [٣] ، فالفلسفة من هذا المنظور وحسب عثمان أمين ليست نظرة معيارية للكون وللإنسان فحسب بل هى نظرة نقدية ، ولكن أى نقد ؟ إنه النقد الفلسفى الذى تمارسه الفلسفة على ذاتها وعلى

---

(١) عثمان أمين ، محاولات فلسفية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، مصر ، ط ٢ ، ١٩٦٨ ، ص ١٥ .

(٢) عثمان أمين ، الجوانية ، ص ١١ .

(٣) عثمان أمين ، نقد المجتمع الإسلامى المعاصر ، الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامى ، الجزائر ، ١٩٧٢ ، المجلد الرابع ، ص ٣٠٦ .

الواقع وهو الذى " لايعنى الهدم والتجريح بل يعنى البناء والتأصيل ، والنقد شاهد على النزعة المثالية التى ترمى إلى مجاوزة الواقع القاصر إلى ماهو أفضل وأسمى " [١] .

إن عثمان أمين بهذا المعنى قد رجع إلى ماهية الفلسفة الحقيقية التى تجعل من الفكر فى حركة دائمة لاتقف عند حد معين حتى تعبر عن ماهية الإنسان ذاته ككائن قاصر بفكره وبواقعه يهدف دائما إلى التحسين منه ، لأن مايوجد عليه لايمثل الكمال فالكمال هو البحث المستمر الذى يضمن البقاء للفلسفة ، ويجعل منها هى نفسها مثلا أعلى ، فالفلسفة مستمرة وباقية وضرورية مادام الإنسان موجود وباقى ، إن هذه المهمة الفلسفية هى التى تربط الواقع بالمثال ، الواقع الذى نعيشه ونعانيه والمثال الذى نأمله ونعمل من أجله ، ولذلك كان عثمان أمين يقول " للفيلسوف بهذا المعنى شعارا لاينبغى به بديلا ، أن يعمل كرجل فكر وأن يفكر كرجل عمل " [٢]، ولعل ذلك مادفع " بحسن حنفى " إلى القول بأنه يجب على الإنسان الا يركن لأى نظرية فلسفية بل ينبغى أن يتحرر من قيودها تحررا يجعله دائما على استعداد للإنطلاق نحو عالم أفضل [٣] ، لأن الإرتباط بنظرية معينة معناه الخضوع إلى قيد الركود والجمود الذى يتناقض مع مبدأ الفلسفة والتفلسف.

وعلى هذا المبدأ كان عثمان أمين يحث العرب والمسلمين إذا أرادوا الخروج من دائرة التخلف ويحققوا التقدم المنشود أن يكونوا واقعيين وعمليين فى تفكيرهم وعملهم ، وأن يتحرروا من أوهام الخمول والجمود، ويدركوا أن أية عملية للتقدم لاتتحقق إلا بالإستمرارية فى التفكير والعمل، وفى ذلك قال : " إذا أراد المسلمون سلوك الطريق الصحيح فى الفكر والعمل ، فيجب عليهم أن ينزعوا من نفوسهم كثيرا من الأوهام عن العلم والإيمان ، ويجب أن يعلموا أن الكشوف العلمية والإنجازات العملية لايمكن أن تتم بقرارات رسمية ، وأن الموهبة وحدها لاتكفى ،

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٨٥ .

(٢) عثمان أمين ، فلسفة اللغة العربية ، الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الإسلامى، وزارة الشئون الدينية ، الجزائر ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠م ، ص ١٨٨ .

(٣) حسن حنفى ، من الوعى الفردى إلى الوعى الإجتماعى ، فى دراسات فلسفية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر ، ١٩٧٩ ، ص ٣٣٤ .

بل يلزم الفكر الدائب والعمل المتواصل " [1] ، فالفلسفة بهذا المعنى هى وحدها القادرة على تفجير الطاقات وخلق العزائم ، والفلسفة التى يراها عثمان تتلاءم مع المجتمع الإسلامى هى النابعة من روح الدين ، وتتوافق مع الفلسفات الأخرى وخصوصا الفلسفة الوسطية التى ترى معيار الوسطية هو مبدأ الحياة ومبدأ الفكر ، والمسلمون والعرب قادرون على أن يقوموا بهذا الدور فى هذا العصر لأنهم كانوا قد أسسوا فى تاريخهم فلسفة خاصة بهم متميزة عن غيرها من الفلسفات ، وما قدمه الفلاسفة المسلمون من أمثال الفارابى وابن رشد والغزالى وابن سينا وتأثر غيرهم بفلسفتهم إلا دليل على إبداعاتهم الفلسفية التى صاغت لنفسها مذهبا صافيا له أصالته [2] ، هذا المذهب الذى حاول عثمان أمين تأسيسه من جديد لكن أفكاره جاءت غير واضحة المعالم خصوصا على مستوى المنهج الذى هو أساس كل فلسفة وكل فكر ، وهذا خلافا لما كان يهدف إليه هو ذاته لأنه كان يعتبر فلسفته هى طريق إلى التفلسف قبل أن تكون فلسفة .

ثالثا : موقفه من اللغة العربية :

لقد جعل عثمان أمين من اللغة فلسفة قائمة بذاتها تحمل مواصفات ماتحمله الفلسفة ذاتها ، أى أن اللغة هى فكر وعمل إنها تعبير عن لسان وعن حضارة إنها تعبير عن فعالية الإنسان ، وقد كان دفاعه عن العربية باعتبارها تتميز بهذه المميزات دفاعا مستميتا ، حيث استعرض فى مؤلفه "الجوانية " بعض مواقف المفكرين العرب من اللغة العربية ورد عليهم [3] وقد حث المشرفين على تنظيم ملتقيات الفكر الإسلامى بالجزائر على تنظيم ملتقى خاص يتعلق باللغة العربية وذلك ماحدث بالفعل ، واهتمامه باللغة كان انطلاقا من مبدأ يرى فيه أن أساس إثبات الوجود بين الأمم هو أن تدافع كل أمة عن لغتها وتظهرها علىٰ أن لها من

---

(١) عثمان أمين ، أثر الفلسفة الإسلامية على الفكر الغربى ، الملتقى الثامن للفكر الإسلامى ، منشورات وزارة الشئون الدينية بالجزائر ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤م ، المجلد الثالث ، ص ١٠٦٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٥٨ .

(٣) للمزيد من الإطلاع على استعراضه للمواقف وردوده عليها يرجى العودة إلى مؤلفه: " الجوانية " ص ١٨٠ وما بعدها .

الإمكانية والقدرة على بناء الحضارة والمحافظة عليها والقدرة على تداولها ، وهذا ماكان يحث عليه العرب إذا كانت لهم أصالة وحضارة أن يثبتوا لغيرهم من الأمم أن لهم لغة وهى " اللغة العربية " وهى من أقدس المقدسات التى يملكونها فى هذه الحياة ، ويثبتوا أنها ليست متخلفة أو جامدة أو عاجزة عن استيعاب مظاهرومطالب التقدم العلمى والحضارى ، وأنها من ثمة لغة حية وخالدة تتميز بالأصالة والتفتح [١] .

ومن هنا كان عثمان أمين يعتبر أن اللغة العربية هى لغة الحضارة والعلم والتقدم ، ولغة التغير والسيادة والإستقلال ، إنها تأثرت كما تأثر إنسانها الحامل لمميزاتها بالإستعمار الذى كان يريد القضاء عليها كما كان يريد القضاء على الإنسان ذاته ، ولكنه وإن نجح فى تعطيل فاعليتها ، فإنه لم يستطع القضاء على مقوماتها ، وإن ذلك لدليل على قوتها وقدرتها وعظمتها على الوقوف أمام كل الصعاب ، ولعل أصدق مثال على ذلك هو صمود الشعب الجزائرى لفترة تزيد عن ١٣٠ سنة ، أمام محاولات الإستعمار لطمس لغته لأكبر دليل على ماذهب إليه عثمان أمين ، ومن ثم فإن من ينظر إلى اللغة العربية كلغة عاجزة عن أداء رسالتها الحضارية سواء من أعدائها المستعمرين وهذا طبيعى لطبيعتهم الإستعمارية ، أو من أبنائها المقلدين للمستعمر ، وهؤلاء المقلدون كانوا دائما فى كل الأحوال والأزمنة من أكبر العوامل التى فتحت المجال أمام دعاة التخريب والتنصير [٢] ، فما ذلك إلا نتيجة لعجزهم هم أنفسهم عن استيعاب مكوناتهم الحضارية التى لايجدون إلا تهديما فى نقدها ذلك النقد الذى يتناقض مع الوعى الإنسانى ، ومع التفكير الفلسفى الذى يفرض النقد البناء .

ويعتبر عثمان أمين أن اللغة من أهم المقومات التى توحد بين أفراد الأمة الواحدة ، ويستند فى ذلك إلى ماحدده فيخته عن ماهية اللغة باعتبارها : " تلازم الفرد فى حياته وتمتد إلى أعماق كيانه ، وتبلغ إلى أخفى رغباته وخطراته ، إنها تجعل من الأمة الناطقة بها كلا متراصا خاضعا لقوانين ، إنها الرابطة الحقيقية

---

(١) عثمان أمين ، تصحيح بعض المفاهيم عن اللغة العربية ، الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الإسلامى ، الجزائر ١٣٩١ هـ / ١٩٧١م ص ١٦٥ .

(٢) عثمان أمين ، فلسفة الغة العربية ، ص ١٨٧ .

الوحيدة الرابطة بين عالم الأجسام وعالم الأبدان " [1] ، صحيح أن اللغة كانت عبر الأزمان هى التعبير الوحيد الذى منه يبرز دور الأمة فى الحضارة الإنسانية ، ولكن أن يستند عثمان أمين فى ظل هذا التراث الإنسانى الطويل على الآخر فى تحديد قوة الفكرة التى يدعو إليها تؤكد ماذهبنا إليه من قبل على أن هذا الآخر كان حاضرا بقوة فى تفكيره رغم محاولة التخلص منه ، وإن كان هذا يمثل صيرورة تاريخية طبيعية للفكر فإن اللاطبيعى فيها هو محاولة التخلص منها وهى موجودة فيه ، إنه الإغتراب الفكرى بعينه الذى كان هيجل يبنى عليه جدليته الفكرية .

ويحمل عثمان أمين الإستعمار الحديث كثيرا مما لحق باللغة العربية نظرا لما يبثه من إشاعة وتشكيك فى هذه اللغة حتى يفقد أبناؤها الثقة فيها وفى أنفسهم ، وهذه مسألة سياسية يسعى دائما إلى تجسيدها ، وكما أنه يستخدم وسائل أخرى لتحطيمها وتفكيك وحدة الأمة العربية من بينها تشجيع اللغة العامية على الفصحى ، وتشجيع اللهجات المحلية لتحل محل اللغة العربية ، بينما اللغة الواحدة الموحدة التى تجعل كما يقول فيختة : " من الأمة الناطقة بها كلا متراصا خاضعا للقوانين " وهى العربية فيحاول إبعادها ، لأن الإستعمار يدرك أن وحدة اللغة تؤدى إلى وحدة الهدف والمقصد الذى يحدده القانون لحياة الأمة والذى به يمكن أن تحقق التقدم والإزدهار وهذا مالايرضاه .

والإستعمار حسب عثمان أمين اعتمد فى حملته على اللغة العربية على التبشير الذى ارتبط به ، حيث يقول : " وواضح من الوثائق التى يضمها كتاب التبشير والإستعمار أن هناك صلة بين العاملين فى هذين الميدانين المتباعدين فى الظاهر ... واتخذ الإستعمار من التبشير أداة طيعة فى يديه فجعل همه تحطيم اللغة العربية " [2] ، ولكنه يرى أن هذه الهجمة الإستعمارية وإن ظهرت فى أواخر القرن الماضى ، فإن كثيرا من المفكرين العرب المسلمين برزوا على الساحة العربية وتصدوا لهذه الحملة الإستعمارية أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده

---

(١) عثمان أمين ، الثقافة والحضارة ، الملتقى التاسع للفكر الإسلامى ، منشورات وزارة الشئون الدينية ، الجزائر ١٣٩٥ هـ /١٩٧٥م ، المجلد الرابع ، ص ١٣٩٧ ، ١٣٩٨

(٢) عثمان أمين ، فلسفة اللغة العربية ، ص ١٨٩ .

وقاسم أمين وغيرهم [1] ، وأن اللغة العربية من هذا المنطلق لاتحمل فـــى ذاتـــها عوامل تأخرها وانحطاطها ، وإنما الهجمات الداخلية والخارجية هى التـــى أرادت إضعافها .

وللمحافظة على اللغة العربية وعلى ديمومتها واستمرارها يحثنا عثمان أمين على المحافظة على خصائصها ، وإن كان هنا لايخرج عن المبدأ الفلســفى الــذى كان يسعى إلى بنائه وهو " الجوانية " ، فقد رأى أن المثالية مـــن ســمات اللغــة العربية ، حيث يقول : " وأول السمات التى تتميز بها لغة القرآن هى أنـــها تنحـــو نحوا من المثالية لانظير لها فى أى لغة من اللغات الحية المعروفـــة " [2] ، وهــذا المسعى هو الذى عمل الأوروبيون على تجسيده فى لغاتهم منذ أفلاطون إلى كنط ، والمقصود بهذه المثالية هى أنه دائما فوق التجربة الحسية الجزئية صور أو معــانى عقلية كلية ، وهذه مخالفة للنظرة المادية أو الوضعية أو الواقعية ، وهــذه الثنائيــة حسب عثمان أمين هى التى أحدثت تمزقات فى مغامرات الإنسان الغربى ، وهـــو هنا لايرى أن هذه الثنائية موجودة فى الفكر العربى ولكنها موجودة فيـــه فعــلا ، ولذلك فهو يعيش نفس الحالة التى يعيشها الإنسان الغربى ، وهو فى بعض الأحيان يتجاهل بعض الحقائق التى تمس كيانه العربى الإسلامى .

وبعد المقارنة التى يقيمها عثمان أمين بين اللغة العربية واللغات الأوروبيــة يؤكد على أن اللغة العربية أرقى تلك اللغات لكنه لايبين أسباب تخلفها وتأخرهـــا ، وكيف تكون سبيلا إلى إحداث تغيرات حتى على نمط التفكير كما أحدثتـــه اللغــات الغربية ، إن هناك فرقا شاسعا بين الإيمان والإعتقاد والفعل والعمـــل ، وحتـــى على مستوى المفهوم فلا نجد جديدا للغة عند عثمان لأنه ركز على المواقف ولـــم يول عناية بالتأصيل .

أما السمة الثانية للغة العربية فهى الحضور الجوانى وحاول مـــن خلالـــها عثمان أمين خلق ميزة خاصة باللغة العربية لأنها وحدها من بين اللغات التى لـــها حضور طبيعى فى كل القضايا والمسائل التى تتناولها ولا تحتاج فيها إلى وســـائل إثبات خارجية لأن العلاقة فيها بين الذات المفكرة والموضوع المفكر فيـــه علاقــة

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٠ ، ونفس النص موجود فى مؤلفه : الجوانية ص ١٥٠

تضمن ، فالإنسان فى اللغة العربية كما يقول قاسم أمين يفهم ليقرأ بينما فى اللغات الأخرى يقرأ ليفهم [١] وهذه خاصية لاوجود لها فى كل اللغات فهى : " بطبيعة بنيتها وتركيبها تعين الذهن الإنسانى على أن يسلك الطريق الطبيعى فى تحصيل المعرفة " [٢]، وفى هذه المسألة يستند عثمان أمين على ابن خلدون الذى حدد هذه الماهية الخصوصية للغة العربية فى الفصل المعنون بـ " فى أن اللغة العربية لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر ولغة حمير " [٣] وفيه يؤكد على أن الكلام العربى أوجز وأقل ألفاظا وعبارة من جميع الألسن ، وعلى ذلك إن منطق التفكير فى اللسان العربى منطق صاعد يسير دائما من الأدنى إلى الأعلى ومن البرانى إلى الجوانى .

رابعا : موقفه من الحضارة :

مما لاشك فيه أن الحضارة المعاصرة ترتبط بالتطور التكنولوجى الذى أحدثه الإنسان ، ويرتبط ذلك على وجه الخصوص بالإنسان الغربى، فأصبحت الحضارة المعاشة المتميزة هى الحضارة الغربية ، ومما لانختلف فيه أن لهذه الحضارة جوانب إيجابية على حياة الإنسانية جمعاء ، وجوانب أخرى سلبية ، وعثمان أمين عندما ينظر إلى الحضارة ينظر إلى جانبها السلبى أكثر من الإيجابى ، على اعتبار أن الحضارة المعاصرة وجهت جهودها واهتماماتها إلى جوانب الحياة المادية سواء الكامنة فى الطبيعة أو فى الإنسانية ، وأهملت الجانب الثانى فى الإنسان الذى يميزه ككائن عن سائر الكائنات الأخرى وهو الجانب الروحى ، حيث يقول : " إننا نشهد هذه الأيام من آثار الغرب فيما يسمونه حضارة وثقافة مايدعو إلى وقفة تأمل وتفكير ، إغراق فى الإقتصاديات، واستعباد للماكينات وسباق إلى الإلكترونات ، ونشهد مركبا من الصور تلاحقنا بها السينما والصحف والإذاعة والتليفزيون تجعلنا نجرى ونلهث إلى غير غاية ونعيش على هامش

---

(١) عثمان أمين ، تصحيح بعض المفاهيم عن اللغة العربية ، ص ٢٨ .

(٢) عثمان أمين ، الجوانية ، ص ١٦٤ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، الدار التونسية للنشر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ١٩٨٤ ، جـ ٢ ص ٧٢٣ .

أنفسنا " [1] .

إن الحضارة التى ترتقى بالإنسان ليست حسب عثمان أمين وسائل مادية ، ولا هى الوسائل التى نستمتع بها ، وإنما هى المكونات الخصوصية التى تتميز بها أمة ما عن باقى الأمم الأخرى ، ولذلك فهى ليست بضاعة تباع وتشترى ، وإنما هى الجهد الذاتى الذى يبذله الإنسان لتحقيق ذاته ، إذ هى تفكيره الذاتى الذى لايمكن له استيراده ، فالحضارة لاتبنى بسواعد الأمم الأجنبية ، بل تبنى بسواعد أبنائها ، وعلى أية أمة إذا أرادت الرقى بذاتها أن تعتمد على نفسها ، ولاتنتظر الحضارة أن تقدم إليها من غيرها .

وبهذه النظرة يوجه عثمان أمين دعوة واضحة وصريحة يحث فيها الأمم المتأخرة ، ولاسيما الأمة العربية الإسلامية على ضرورة الإعتماد على ذاتها وتفجير طاقاتها الكامنة فيها لتحقيق نموها وازدهارها ، فقد كان يقول : " إن الثقافة والحضارة لايرتجلان ولايستعاران ولايستوردان ، والشعوب لاتثقف ولا تتحضر إلا فى أناة وتريث " ، فالحضارة تتنافى مع العجلة والتهور والإندفاع [2] ، لأن كل ماله علاقة بالإنسان يجب أن يرتبط بمقدار فهمه له وإدراكه لمضمونه ومحتواه ، فإذا قصرنا حياة الإنسان على الأمور المادية دون أن يكون له وعى بها فهذا لايمثل حضارة حقيقية لها ، لأنه يصبح مثله مثل الكائنات التى لاتعى ماتفعل .

وعثمان أمين بتفسيره هذا للحضارة وفعل الإنسان فيها يقترب من الفكر المثالى الذى رسم معالمه الكبرى هيجل الذى يعتبر أن العقل الإنسانى هو : " روح العالم فهو حال فيه وهو مبدؤه الكامن المحايث وهو طبيعته الداخلية وهو الكلى فيه " [3] ، إن الإنسان هو وحده القادر على صنع التاريخ وعلى صنع الحضارة المتولدة عن هذا التاريخ ، وإن صناعة الإنسان للتاريخ هو صناعة نفسه ذاتها ، فالإنسان ليس تاريخا ولاوليد التاريخ ، إنه الفاعلية فى التاريخ ، ولعل هذا هو الذى دفع بعثمان أمين إلى تفضيل الروح على المادة وقال بشأنها أنها هى التى تضم

---

(١) عثمان أمين ، فلسفة الغة العربية ، ص ١٩١ .

(٢) عثمان أمين ، الثقافة والحضارة ، ص ١٣٩٨ .

(٣) هيجل ، موسوعة العلوم الفلسفية ، ترجمة وتقديم وتعليق إمام عبدالفتاح إمام ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، ص ٩٩ .

جميع الملكات التى أودعها الله فينا [1] ، وفى نقده للحضارة يتناقض فى بعض الأحيان مع نفسه ، فكأن النقد بالنسبة له ماهو إلا موقف اتخذه من الحضارة دون إدراك جوانبها المختلفة ، فهو وإن كان يقصرها على الجوانب المادية فقط ، فإنه ينتقدها من جهة أخرى على أساس أنها ترتبط بالسياسة ، فكأن السياسة عنده ملهى إلا الفعل المادى وهذا يتنافى مع المضمون الفعلى للسياسة ، اللهم إلا إذا أخذنا موقفه هذا بالنظرة الخلدونية للسياسة .

فقد جاء فى محاضرته فى الملتقى التاسع للفكر الإسلامى والمعنون بـ "الثقافة والحضارة " أن الحضارة المعاصرة : " كلها سياسة تستسيغ لحوم الآدميين، إنها تقهر الضعفاء وتثرى على حسابهم ، إنها آلة للطحن ، إنها تصنع الفراغ حولها ، إنها حضارة علمية لا إنسانية ومصدر قوتها أنها تركز قواها صوب غاية واحدة الثروة والسلطة " [2] ، فكأن هذه الأفعال هى لا إنسانية ، وهذا غير صحيح لأن المتعارف عليه أن الأفعال الإنسانية مهما كانت تبقى نظرتنا إليها نظرة معيارية قيمية، لا نظرة علمية موضوعية ، وبالتالى ماقد يبدو لا إنسانى لعثمان أمين كإنسان فهو إنسانى لغيره من الناس الآخرين .

ولكن السؤال الحيوى الذى يطرح نفسه علينا هل تستطيع الفلسفة التى يدعو إليها عثمان أمين أن تغير من واقع الإنسانى الروحى والأخلاقى كما غيرت الحضارة وضعه المادى والتكنولوجى ، أو كما يقول " حازم الببلاوى " ، فهل يستطيع ضمير الإنسان أن يتطور ويتجدد مثلما استطاع عقله أن يكتشف ويخترع ؟ [3] . إن عثمان أمين وإن كان هنا يحث المسلمين إذا ارادوا اللحاق بركب الحضارة أن يمتثلوا دينهم ويفهموه لأنه وحده القادر على بناء الإنسان الذى يستطيع أن يبنى الحضارة ، إن هذه الدعوة هى وجهة أغلب المسلمين ، وهى من حيث المبدأ صحيحة ، لكن الإشكالية التى تبقى قائمة هى كيف السبيل إلى تمثل الإسلام وبالتالى بناء الحضارة ؟ إنه هنا يقدم النتيجة ولايقدم الطريقة الموصلة إلى

---

(١) عثمان أمين ، أثر الفلسفة الإسلامية على الفكر الغربى ، ص ١١١٥ .

(٢) عثمان أمين ، الثقافة والحضارة ، ص ١٤٠٤ .

(٣) حازم الببلاوى ، المجتمع التكنولوجى ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، مصر ، ١٩٧٢ ص ٢٠٣ .

النتيجة ، وبالتالى تبقى دعوته عامة لايمكن أن ترقى إلى القدرة الحقيقية الدافعة على بناء الحضارة ، وتظهر هذه الدعوة العامة حين يقول : " فإذا اراد المسلمون أن يستعيدوا مجدهم الفكرى والحضارى فلا بد لهم من العودة إلى فهم حقيقة دينهم عندئذ يتبينون أن حياتهم قوامها تحقيق الرسالة الإسلامية : وهى تزكية الضمير بمراعاة الدقة وإتقان العمل " [١] .

والموقف العام لعثمان أمين من الحضارة لايخرج حسب اعتقادنا وحسب ما اطلعنا عليه عن موقف جمال الدين الأفغانى الذى يرى أن التخلف لايقاس بمسائل التمدن المادى المتمثل فى صنع الآلات والوسائل الحربية المدمرة ، وإنما يقاس بالتمدن المرتبط بأبعاد أخلاقية وإنسانية سامية ترفع الإنسان إلى مكانته الحقيقية وتنزع عنه صورة التوحش والهمجية [٢] وذلك لايتحقق إلا بالعلم الصحيح الذى يقود إلى السلام ويحقق الرفاهية للبشر ، ولايدفع بالأمم إلى الحروب والفتك بالشعوب [٣].

وانطلاقا مما قدمناه فى هذه الدراسة على ضوء ماجاء فى محاضرات عثمان أمين فى ملتقيات الفكر الإسلامى بالجزائر فإننا لانجد عنده جديدا أو إضافة سواء على مستوى الطرح أو على مستوى الفكر ، على ماتضمنته مؤلفاته السابقة، فكانت من ثمة الأفكار التى تضمنتها تلك المحاضرات اجترارا لما كتب من قبل ، وفى بعض الأحيان كانت تلك المحاضرات عبارة عن أفكار ومواقف عامة لم تسوق إلى مستوى البحث العلمى الدقيق المرتبط بالنص والمصدر .

---

(١) عثمان أمين ، أثر الفلسفة الإسلامية على الفكر الغربى ، ص ١١١٥ .

(٢) محمد باشا المخزومى ، خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ، دار الحقيقة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ١٩٨٠ ص ١٨٣ .

(٣) عثمان أمين ، موقف جمال الدين من الحضارة الغربية ، ص ٤٥ .